العقاد ، وأننا حين نملك اللغة لا ننسى أن اللغة أيضا فى صورتها الحرة النامية العريقة هى أملنا الذى ينبغى ألا يغيب عن وعينا .

خلاصة ما أريده . . فى هذه الكلمات أن بحث أمين عن الكلمات كان جزءا من هذا الإطار الذى ورثناه عن جيل الرواد ، ولكنه تعرض لما لا يحسن ذكره بالتفصيل فى هذا المقام .

ومن المؤكد أن الإحساس بالقدم أو العراقة كان مشغلة الرواد حين بحثوا شئون التطور والحياة . . ولكن أجيالنا مع الأسف نسيت هذا كله أو رأت فيه رأيا آخر .

ومناقشتهم فيما يذهبون إليه تجر إلى فنون من الحزن العميق ، فقد كان الرواد حين يكتبون وحين يبحثون يرون العربية الأصيلة حرة متطورة ، ولكننا الآن نأخذ بعض أطراف القضية ونهمل بعضها الآخر . . وما أشك فى أن تراث الرواد أو تعاملهم مع اللغة ، بحثا وكتابة ، يجب أن يعاد النظر فيه بشىء من الرفق والاعتدال ، فقد يفصح لنا عن المخاطر التى نتعرض لها دون أن نأبه بها .

ومهما يكن فإن أمينا كان يلتقط من كتابات المتقدمين عبارات خاصة تشير إلى الحساسية إشارة واضحة ، فاللغة تعرف بواسطة المعاينة ، ولا تعرف بواسطة العقل النظرى . . وقد كان شىء من هذا المعنى يبزغ فى عقل أمين حين يقرأ بعض عبارات لابن سلام . ويظهر أن لفظ « المعاينة » قد فتنه لأن المعاينة هى الحضور أو البصيرة أو الحدس أو الاحتواء الكامل أو الاستيعاب فى لحظة من اللحظات التى تجتمع فيها أطراف كثيرة .

كان أمين يتلمس بعض معالم تاريخ اللغة ، ويتلمس ما يتعرض له من مظاهر التحدى ، ويتلمس طرق الاستجابة . كان أمين يطرق أبواب اللغة محيطا بألفاظها كالذى يخشى أن يفوته شىء من عالمها . كان هذا كله يذكره بعبارة وردت فى « دلائل الإعجاز » هى عبارة « الإحساس الروحانى » . كان أمين إذن واحدا من الذين عناهم أمر الإحساس الروحى باللغة ، ولكن الإحساس الروحى فيما يزعم بعض المعاصرين أمر لا علاقة له بعلم اللغة . الإحساس الروحى فيما يزعمون مسألة تستبطن فيها النفس أو تخضع للتأمل الذاتى ، وهى لذلك متميزة من شئون البحث العلمى فى أمور اللغة والكلام والتطور والتاريخ .